لا تــبالي

نصوص نثرية

محمد حامد

www.elmohrereladbe.com

الإهداء

أنا مشتاقٌ لي!

وفيٌ. . . وناكرٌ

وإذا أرسلت روحي في الماضي ذكرتك يا رفيقي، وكانت قد أذهلتني عنك الحياة وقسوتها والأيام واضطهادها .

ما اكفرني بحق الصداقة يا صاحبي! ما اغلظ هذا القلب اللحمي وما أقساه! كيف نسيت حباً وثقناه وعهداً قطعناه!

كنا نسير في الحياة كلٌ يده في يد صاحبه وكل صورته في قلب رفيقه مرسومة. فلما فارقت الحياة أنكرت يدي الودّ القديم، وران على قلبي صدأ النسيان، وابتلع ظلام نفسي ذكراك. . بعد أن كان مكانك عرش، القلب، وبعد أن كانت ملكك كل النفس، وبعد أن كنت ملجأ روحي القلقة، وملاذ فكري المكدود. .

سامحني يا رفيقي فإنني إنسان والإنسان قد جبل على الغدر وفطر على النكران. . لتكن إنسانيتي عذرى لديك. ولا تقس الوفاء بمقياس أهل السماء، فإنني بعد سجين في الجسد، مأسور الروح، عبد لنواميس الحياة. كن كما كنت كريماً متجاوزاً، رفيقاً. .

أنت أنت الوفي، وأنا أنا الناكر. .

وهيا يا رفيقي نعود فنصل الحديث، ونمحو الجفاء، فأنني لحديثك مشتاق، ولسمرك ظمآن. .

كنا لا نصبر على الفراق ساعات يا صاحبي. لكن ها هي ذي عجلة الزمن تدور دورتها الطاحنة، وتباعد بيني وبينك ولا أعود أرى وجهك .

لماذا عجلت ذهابك يا رفيقي!. كنا قد تعاهدنا أن نقتسم معا شقوة الدنيا وأن نستقبل متكاتفين قسوة الحياة، وأن يتقي كل بأخيه غدر القدر!.

لماذا مللت وتركت صاحبك يهيم وحده!! أأعياك حمل رداء الهموم وأنت في سن الفتوة وعمر العزيمة، فآثرت الفرار من هذه الدار؟!. .

لكن لا يا صاحبي. . سامحني. إني لعارف انك لست من الذين يجبنون ويفرون، هو الحزن القديم النائم تحت رماد الأيام تهب عليه ذكراك فتستيقظ جمراته، وتكوى قلبي من جديد، فيضل تفكيري ويطيش منطقي، وأتهمك بما أنت منه برئ!.

كيف حالك يا صاحبي؟!. .

اكبرت أم أنت فتى كما كنت!؟. هل بقيت لك بسمتك وبهاء طلعتك، أم شاخت بسمتك وشحب محياك؟!

كيف حالك؟!

أين أنت الآن؟ أين تقيم روحك؟ هل أنت معذب أم منعم؟ قلق أم مطمئن؟ هل روحك في سلام؟.

رجائي قوي انك في سلام. . فقد كنت باراً وقضيت أيامك كالزهرة النقية تلثمها في النهار أشعة الشمس وتباركها في الليل أنوار النجوم. . كنت جم الفضائل. عشت وديعاً كطير الأفنان. كنت مصباح البيت في الهدى، ونبراس الخلق الكريم.

يا صاحبي. . لقد كلت قدمي. تعبت، هرمت روحي وأنا في شرخ الشباب. . وها هي ذي آلامي ترهقني فأفر إلى الماضي، وأذكرك وهأنذا ألجأ إلى حنانك كما كنت أفعل وأنت في الحياة. . هيا نجدد العهد، ونسعى إلى اللقيا ، فنعود إلى العزف على قيثارة حبنا القديم، ونسترد ألحاننا الضائعة. . .

الحب

الناس يرون في الحب الفاحشة ولا يرون فيه المجد. والذي يعيش في حياته بلا حب كالشجرة العانس. ليس إلا هي في الحديقة، ولا سبيل إلى أن تجد الشجرة الأخرى. فلا هي بالذابلة الجافة، ولا هي بالمثمرة؛ ولكنها بارتفاعها وفقرها تقول: (أنا. . . أنا الموجود الذي لا وجود له.) فما أسرع ما تمتد إليها يد لتقتلعها، وحين ترى نفسها وقد نالتها فأس الحطاب تقول (. . أنا. . ويلي!. أنا الضائعة). أن الذي لا يحب الجمال ولا يلتمسه في امرأة؛ ثم يفاخر غيره بذلك، إنه لا يقول للناس (أنا لا أحب ولا أقدر الحب.) بل يقول (أنا. . ما أنا في الأحياء!. . أنا. أنا ميت الأحياء) والضعف الذي يراه في الذين عرفوا الحب وآمنوا به، إنما هو ضعف في إنسانيته هو لا في إنسانيتهم، والذي لا يدرك الجمال في المرأة لا يدركه في الطبيعة؛ لأن المرأة هي المنظار المكبر الذي ينظر الرجل من ورائه إلى ما حوله. وإلا فهو لا يرى موضعه من الأحياء.

روح الروح

خيّل إلى الفتى حين اجتلى النور من وجه صاحبته، وحين حاطه الشعاع الآسر من روحها ومن عينيها، وحين رأى الأمل يترقرق على شفتيها من ابتسامة رقيقة، خُيّل إليه حينذاك أنه عاش ما عاش من العمر أعمى لا يرى الحياة إلاّ مادة؛ أما الآن فهي عنده روح من الروح، وهي عنده شعاع يسطع في قلبه، فلا يزال يذكي روحه، ويرهف حسّه، ويشعره معنى الحياة الجميلة، ويحبّب إليه أن يعيش عَيْشَه مغموراً في هذا النور الإلهي الذي ولَده السالب والموجب من قلبها ومن قلبه.

لقاء

وتلاقيا على ميعاد. ونظر ونظرت، فإذا عصفوران يتساقيان الهوى على فنن؛ فقال في نفسه: (ما أتعس الإنسان! يقيد نفسه بأغلال المادة والتقاليد، ثم يزعم أنه طليق. ليتنا مثل هذين. . .!) وقال لها وقالت له. وكان كلاماً لا تلفظه الشفاه: من ذا يفهم لغة الطير، أو يسمع نجوى العاشقين عيناً إلى عين؟ إن هذين الطائرين يفهمان من فلسفة الحياة أكثر مما استوعبت عقول البشر. إنهما يملكان الحرية، وفي أيدينا وأرجلنا قيود ذهبية. . .!

حياة

ما أعجب ما يرى الإنسان في الحياة! وهل يرى كل ما فيها إلا على ما رُكِّبتْ عليه طبيعته المادية الجامدة؟ حتى إذا ما لمست فِتاة قلبه حالت كل مادة على الأرض شيئاً إلهياً نورانياً، يتلألأ كما انفلق الأصباح عن ليل طويل دامس. وماذا في الشباب إن لم يكن هذا الشباب في القلب قبل أن يكون في نضرة الوجه وتكتُّل العضل؟ حتى الشيخ يرده الحب فتياً!

ضلال

ضَلَّ من يقول إن العقل والكبرياء كلاهما يذهبان برونق الهوى، ويطفئان شعلة الحب. إنهما يجعلان من الهوى هوى مركباً لا ترقى إليه العقول الصغيرة، ومن الحب حباً معقداً لا تبلغه العاطفة السقيمة.

ظمأ الروح

كان فتى خيالي النزعة، أغرته هذه الأفكار السوداوية، فاندفع فيها، لا يرى أن الحياة تتسع لغير هذا الشقاء يعلق بها من مفتتحها إلى حيث الحد بين الدنيا والآخرة، ومضى تعبث الكآبة بناضر شبابه، إلى أن غدا وهو في ميعة العمر. ناحل القد، حائل اللون، رطب الجفن كأنما علق به أثر من أدمع البارحة. . وإذا ما أصغيت إليه وهو يتحدث أسرتك هذه الغنة في صوته، وهذا العمق في أفكاره، ورحت تعجب كيف يستطيع هذا الظل حمل كل هذه الشجون؟.

عرفته فقامت بيننا صداقة موثقة العقد، متينة الأواصر، يشوبها الإجلال من جانبي، والرثاء من جانبه، فقد كنت في نظره واحداً من هذه الملايين التي تتعثر بآمالها، وتتمرمر بأمانيها، وغبرنا على هذا زمناً إلى أن فرقت بيننا دواعي الحياة، وبقي خالداً في فكري، خالداً في روحي، ومضت سنون لم نتلاق فيها، إلى أن جاءتني منه هذه الرسالة:

يا صديقي:

ما كنت أظن أن كلامك يكون جداً وأنت تهزل، فلقد اعترضتني هذه - الجنية - التي شد ما حدثتني عنها،

واستطاعت أن تلامس حياتي بعصا سحرها، فتغير منها. ثم تمر بأناملها الجميلة على أجفاني فأغدو أبصر وأرى أن هذا الوجود ينطوي على أشياء كثيرة جميلة.

. . . وتفصيل الخبر أني هبطت هذا البلد، وشدتني إليه ضرورات لا أستطيع الإفلات منها، ومرت الأيام والشهور متشاكلة متشابهة، وقد كنت لا أزال أسدر في كآبتي، وأتخبط في مآتي أشجاني، حتى كان يوم اللقيا بهذه الساحرة، فكأنما بعثت خلقاً جديداً، واستطاعت

أن تنقي حياتي من كل هذه الأفكار الشائكة. . . فلقد كانت تكبرني بأعوام، وكانت تكبرني بهذه الأفكار نقتها التجارب وأخلصتها من كل خطل، وشاء الدهر الساخر أن يكون بين أبي وأبيها علاقة. . .

وسمح لي أن أتردد إلى بيته، وراقه أن يجد أن زياراتي تبعث في ابنته روح الغبطة والسرور، فينضر فرعها الذابل، وتدب الحياة في روحها الرازح تحت هذا الألم الحبيس الذي يعج في صدرها. . .

وكنت أشعر وأنا أتردد إليها أني أقاد إلى الهاوية، فهذا الصوت الهادئ المتزن، يعيد إليك ذكرى لذة غابرة، وهذه العين غرقى في صفائها تغازل النور، محال أن يقوى على

نـدائها روح يتعشـق الجمـال. . . ولقـد كنـت قـادراً على أن أكتمها حبي، وما حاجتي إلى الإفضاء به، وأنا لا أطلب أكثر مـن أن أجلـس إليهـا سـاعات ترفـه عـن روحي، وتغـذي مشـاعري، غير أنـا في إحـدى جلسـاتنا، وقـد تشـعب بنـا الحـديث، وأخـذت علينـا الغبطـة يقظـات الإرادة، سـمعت صرخات روحي في داخل البدن. . . أنني في حاجة إلى الامتزاج بهـا، إلى الفنـاء في ذاتهـا، وكأنهـا أحسـت بمـا أحسسـت بـه فالتحمنـا بـالنظر. وقالـت عينهـا، لا حاجـة إلى الثـورة - إني أحبك - فأجابت روحي من عيني - وأنا أحبك - ولكن عينها عادت فقالت إني احتقر ملذات البدن، فلا تطمع بها، فقلت وأنا أحتقرها، لقد مللتها، إن روحي هي الصادية.

وفي تلك الجلسة أعلنت لها حبي، وباحت لي بمثله. . . . .

ومن ذلك الحين، أصبحت لا أقوى على فراقها، ولا أطيق الابتعاد عنها دقيقة، ولقد تعاظم أو تضاءل الوجود - لا أدري - فأصبحت هي كل شيء فيه، واستقر حبها في أعماقي ناراً، فغدوت بجانبها أحترق.

ومـرت الأيـام مفعمـة بالهنـاءة، فكنـا نلتقي كـل يـوم، لا أرتـوي من هـذه الكلمـات تنـد عـن هـذه الشـفاه الجميلـة، ولا أشبع من النظر إلى هذا المحيا الذي يبعث إليك في كل لمحة فكرة تحمل معاني الرضى عن الحياة. . .

وأشهد أن جمالها أدناني كثيراً من حمى الله. . وارتفع بنفسي إلى عالم أندى من عالمنا هذا، يرى منه الإنسان مبلغ ما تتردى فيه الخلائق من سخافات، ومبلغ ما تنطوي عليه البشرية من حماقة.

وكنا نتخير من الأمكنة أهدأها، ونهرب بسعادتنا بعيدين عن الضوضاء والصخب، وكأنها وهي ترقى القمم، أو تنساب معي إلى الوادي دنيا من الفتنة تتحرك. على أن هذه التشابيه والصور كانت تجيش بنفسي ولا أجرؤ على إسماعها إياها. . . فهي لا تسمح لي أن أصور تموجات النسائم على غدائرها، ولا كيف تفتضح الموسيقى والشعر، قبالة ضحكتها وبسمتها، ولقد سألتها مرة عن سر هذا الامتعاض، فقالت: ذلك أن الجمال ليس في الشكل، وإنما هو فيما وراءه. . على أن في كلامك غلواً، قلت: نعم ولا، الجمال في ما وراء الأشباح، وليس في كلامي غلواً، وكذا أنت ترين أن جمالك أمثل من أن نتطاول إلى وصفه، فصمتت ثم قالت: دع هذا وخذ في غيره.

قلت: فليكن فقد يجر إلى ما أخذنا على أنفسنا العهد بالابتعاد عنه. . . ثم تأخذ الحديث بلباقة وتديره على الوجه الذي تريد، مبتعدة فيه عن كل ما من شأنه أن يستثير فيك هذا الذي يطمع فيه عباد البدن.

وهي إذ تحدثك لا تجهد في إقناعك، بل تلقي الفكرة موجزة واضحة، ثم تتركك تتخيل، وتقيس وتقارن، ولك أن توافقها أو تخالفها فهذا ليس بالشيء المهم، وإنما المهم أن تفكر!.

شارف العام أن ينتهي، وأنا لا أزال في غمرة حبها أضوي جسماً، وأنمو فكراً وإحساساً، أصبحت شغلي الشاغل، لقد لهوت عن العالم، ونسيت أن به خلائق يعز عليها أن ترى آلافاً تمتزج بالمحبة، وتلتحم بالروح، حتى كان اليوم الذي سحق فيه قلبي، وتحطمت كأس سعادتي، فقد جئتها في عصاراه كالعادة، لنذهب إلى نزهة اتفقنا عليها، فجلست إليها ريثما تنهي عملها، وتصلح من شأنها، ولكني أوجست خيفة، وأنا ألاحظ عليها أثر اضطراب تحاول إخفاءه، ثم رأيتها تتحفز للكلام، وبعد لأى استطاعت أن تجمع شتيت إرادتها فقالت:

أصغ إلي. . . . . قلت: كلي آذان. . . . .

قالت: أو لم تسمع؟. . . لقد أكلتنا الألسنة!.

قلت: لا أدري ما تقصدين؟ قالت: ستدري. إن هذه البشرية المتمرغة بالخسة، المتهفتة على الساقط من اللذة، لا ترى من الممكن أن تقوم علاقة بين متحابين، لا تمت إلى

هذه الأسباب الدنيا، ولا تنبع من هذه المنابع الآسنة التي منها يستقون علاقاتهم.

قلت، وقد قام بنفسي أن أداري ألم الصدمة: ليكن هذا فخلهم وصغائرهم، فما تصاحبنا لبذل في الخلق.

فوجمت قليلاً، ثم قالت: ليس عن غباوة تتكلم، وعاجلتها دموعها، وقد والله يا صاح رأيت أنواعاً من الدمع، فما رأيت أشجى ولا أبعث للأسى من دموع هذه الحسناء البريئة المظلومة، إنها بهذه القطرات تحاول أن تستنطق العناصر وتستشهدها على طهرها وظلم الإنسان.

قلت: هوني عليك أو بلغ الأمر إلى هذا الحد؟!. . .

قالت: أجل! ومن حين وأنا أكتمك إياه، وأبي وأقرباؤه لقد طلبوا مني أن اقطع معك هذه العلاقات، انهم يرونها خطرا على كرامة الأسرة، وغدا يسافر بي إلى بلد ناءٍ كتم عني اسمه وإخاله لن يعود إلا متى رحلت!!. . . .

ودارت بي الأرض الفضاء وصرخت كالمذعور:

محال هذا، إنهم يملكون منك الجسد، أما الروح فهو وقف على محبتي، لن أدعهم - وأنا قادر - يحطمون كأس حياتي. .

كيف يفصلونك عني؟! أيفرق الروح عن الجسد دون أن يتقوض؟. . . .

ثم كانت ساعة افتضح فيها جلدي، فطفقت أبكي، لقد بكيت كثيراً، وما صحوت إلا وهي تضمني، وتبللني بمدمعها، ثم طبعت على فمي قبلة، طبعت على فمها مثلها، هي أَنِل وآخر قبلة، هي أثمن ما أمتلك من ذكرى.

ومالي أشق عليك، لقد انتزعوها مني كما ينتزع الطفل عن ثدي أمه، لقد ذهبوا بأجمل حياتي، وموئل ذكرياتي.

لقد كانوا قساة، فلم يرحموا غرباء جاءوا دنياهم على عجل، ويمضون كما جاءوا.

لقد ذهب معها الصبر، فأصبحت هذه الدنيا في نظري كشِراك الطائر ضيقة قفراء من كل ما يلهم العزاء.

وأنَّى لي أن أحمل كل هذه الدنيا من الأوصاب، فسقطت مريضاً خائر القوى، ولي هاهنا - بالمستشفى - شهران لا أبل إلا لأنتكس. .

وقد جاءتني بالأمس منها كلمة هي: (إلى الملتقى. .) إذن فهي تعرف أني بالمستشفى، بدليل أنها كتبت العنوان ورقم الغرفة، فخبرني أين تكون لقيا المرضى. . وأكبر ظني أنها مثلي مريضة.

إن الدنيا أضيق من أن تتسع للقيا القلوب الطاهرة.

إلى الملتقى. . حيث يتبع الحسن دون رقيب، وحيث تروى القلوب الظامئة إلى الجمال. . . إلى الملتقى. . . إلى الملتقى. . .

سماء

في يوم ما كانت السماء تبدو أقرب .
كان كل شيء يبدو قريباً جدًا من أيدينا .
لم يكن هناك ما يوقفنا إلا أن نحلم فقط .
الآن كبرنا فلم تعد هناك سماء !

لحن

يا عجباً! لقد جفّ قلبي وذوت سعادتي!

فهذا هو القمر يتألق في السماء، والأرض نائمة في سكون، وأنا أرمقه من خلال همومي، فلا أحس فيه الجمال ولا المتعة. . .

وتنفّس الفجر، فما لمست في نسماته النديّة بَرْدَ الراحة ولا نشوة اللذة. . .

وافترّ ثغر المشرق عن ابتسامة الشمس، وأنا - وحدي - جاثم على نشز لا أستبشر لبسماتها. . .

وإن الروض ليضحك، فما أرى في ضحكاته سوى فنون من الكآبة والحزن. . .

وإن الغدير ليعزف على قيثارة لحن الخلود الشجي، فما تتطرب له نفسي. . .

نور

أيتها المرأة، لطالما فوّقت إلى قلبي سهامك المراشة، فاضطرم بالهوى وتلهب بالشوق.

والآن ها هو ذا قد شاط بينها فما عاد قلباً، ولكن مضغة لا تتحرك.

ولطالما سهرتُ أُناجيك - وأنتِ في منأى عني - والآن هدّني الإعياء؛ فذريني أقذف بأعبائي جانباً، لأتوسّد ذراعي على الحصا، في ظلال شجرة وارفة، إلى جانب غدير، تسكرني نسمات الربيع الهينة، فتستمتع نفسي بحنان الطبيعة وهدوء الكرى .

أفحقاً أنكِ أنتِ مادة الشاعر حين يتغنى بكلمات تتدفق النشوة واللذة من خلالها؟

أفحقاً أنكِ أنت ريشة المصور التي تعبث بالألوان فإذا هي حياة؟

أفحقاً أنكِ أنتِ لحن الموسيقى السماوي حين يُداعب أوتار قيثارة فتتحدث عن خلجات القلوب؟

أفحقاً أنكِ أنتِ لمعة الحياة إن شمل الكون ظلام الموت؟

حبيبتي

حبيبتي أشهى النساء إلى النفوس، لقد وهبني غيرها من النساء حبهن فكن يذهبن ويجئن، بعضهن مرة وبعضهن مراراً، أنني أشكر لهن جميعاً، ولكني كنت أنساهن حين يجاوزن عتبة الدار.

على أنني كنت دائما مشغول الفكر بواحدة أخرى، أفكر فيها حتى وأنا مع غيرها، لأنها كانت المثل الذي أقيس عليه الأخريات فلا تستطيع إحداهن أن تكونه.

هي واحدة ليس غير! كنت دائما أرجو أن أظفر بمرآها داخلة من الباب، فان جمالها كان يتجدد في كل مرة أراها.

هي واحدة لا أكثر! كنت أرغب أن أحيا في ظلها، لأن العيش معها يفرغ على الحياة الجمال كله، ويبعث في أفقها أشعة شمس جديدة.

هي واحدة لا أكثر! كنت أشتهي معها الموت، لأني وأنا بجانبها لا أعرف الخوف.

عاشق

أن ينفق المرء وقته في الليل، تحت نافذة، ومن وراء حجاب، ولا يعمل شيئاً إلا أن يفكر في امرأة، أمر حاوله بلا ريب كل إنسان في هذه الحياة.

والحق أنه من السخف أن تجد رجلاً رزيناً يسير في الطريق نهاراً رافع الرأس، يحمل من وقت إلى آخر، إذا ما جاء الليل على ارتكاب الحماقة تحت تأثير الجوي والأفكار التي تحملها الخفافيش؛ فيذهب ليلاً ويتربص تحت نافذة، بينما لا يشعر إنسان بأمره، وليس لعمله أي معنى، إذ ربما كانت السيدة المنشودة تحلم في مثل هذا الوقت بأوراق اليانصيب، أو تحلم برجل آخر؛ أو يعمد إلى تلاوة نظم تحت الأشجار، بينما لا يصغي إليه إنسان سوى الليل. . والله شهيد على إنه ليس ثمة حياة أكثر خزياً وإثماً من حياة رجل عاشق!

المأساة

وأخيراً . مزقتها ثائراً ثم محوتها محواً بعود ثقاب. .

مسكين أنت! لا تعرف من الحب غير اسمه الساحر الخلاب، تتوهم أنك فائز بأطايب الحب جميعاً وأنت محروم منها، محروم. وكيف ترضى أن تكتفي من حبيبتك ببسمتها الوضاءة، ونظرتها الحنون دون أن تهفو إلى ما وراء ذلك من المتع العذاب!؟

لا، يا صاحبنا، لا! أضرم ثغرها بالقبلات الملتهبات، وضمها إليك ضماً يهدهد حواسك العطاش، وانظر إليها نظراتك إلى أنثى ناضجة، فاتنة، لا نظراتك إلى ملاك من نور.

ويصغي صاحبنا إلى أحاديثهم منكراً لها، مجدفا بها، حانقاً عليها؛ ولكنه يضمر إنكاره، ويخفف تجديفه، ويكبت حنقه، فيظنون أنه مقتنع، راض، ويتوهمون أنه سيلبي قريباً نداءاتهم المغريات. .

ويرحل الحبيب، ويتصدع منه الفؤاد، ولكن الرجاء يروح عنه. فهو يعرف أن الفراق لن يدوم، وأن القطار الذي مضى بالتي يهوى سيرجع بها بعد أربعة شهور. فالنأي المروع، أذن،

لا يبطن اليأس الدامس، القتال، وإن كان - مع ذلك - يوجعه، ويبريه، ويذيقه اللوعة المرة، والهم الزعاف. .

ويجد أولئك (الأصدقاء) - قد ظل وحيداً - مجالا أفسح ليرددوا نغمات (الوعظ) و (الإرشاد) ماضين في ذلك دون أن يضجروا، أو يملوا، أو يضيقوا صدوراً بثباته العجيب وإخلاصه المكين.

(اهتد، اهتد يا صاح. فماذا تجني من هذا الوفاء الصوفي غير الأشواك والسموم!؟)

على أنه هو الآخر مُصر على الوفاء، منطلق في الاسترسال مع هواتف الحب، واستحضار صورة الحبيب. . .

ولكنه إنسان! وإنسان يتعذب ويئن وينوح. فهو غير غني عن السلوى والعزاء، إن قلبه المصدوع سيودي به حتما إن لم يلتمس ألواناً من اللهو تذهله عن هواه ولو لحين. إن الوحشة السوداء تغلف لياليه والأيام، وإن اللقاء الموعود لن يتم إلا بعد أسابيع طوال مضنيات، فما أحوجه إلى العزاء - أي عزاء!

إنه لا يدرك كل ذلك، وقد ينكره إن يجابه به، ولكنه هو هو ما تهتف به نوازعه الخفية المهمة، وهو هو ما أخذ يهيمن

شيئاً فشيئا على خوالجه الباطنة العميقة، وهو هو الذي مهد سبيل (المأساة). . .

أجل لقد ظلت، ظلت أسبوعاً كاملا، ما كنت أصغي في لغير نداء الجسد الحقير.

أبعدت الروح، فقلت للشهوات الراقدات: (هبي! هبي!)؛ وخاطبت المتع الترابية مردداً: (ضميني إليك، عانقيني. . هكذا!)؛ ونصحت الجسد الظمآن قائلا: (اغرف من الينبوع ما طاوعتك قواك، واحتس من الأباريق جهد المستطاع فمن يدري! لعل صاحبك يشمئز يوماً ما من هذه الحال، فيرتد عن ضلالة المبين ويهتدي إلى الحظيرة من جديد) سعال عنيف، يتصاعد من صدر منهار، وعلى الفراش ثمة إنسان شاحب، هزيل، أضناه السقام، وشفه التبكيت، فيا للمريض!

إنه ليزيد نفسه تعذيبا بقراءة اليوميات (العذرية)، والتي كان يخطها بدمعه الثر، ودمه الغزير قبل فترة (الظلال) إن قرأتها تجسم له خطيئته، وتكبر زلته، وتوحي إليه أنه دنئ دنئ، فهو يتساءل متعجبا آسفا ثائراً: (أأنا الذي فعلت ما فعلت؟! أأنا - أنا الذي ما كنت أصبو إلا إلى السمو والتحليق - أمرغ نفسي في التراب المشوب والطين المهين؟!

(ويل لي! ويل لي من نفسي! وويل لي من الحبيب الذي خنت! وويل لي من الله!)

أيها الجسد الظمآن: ألم أقل إن صاحبك قد يبصر بعد عماه؟

. . . وهكذا مزقتك ثائراً، أيتها الصفحات، ثم محوتك محواً بعود ثقاب، أوديت بك في لحظة من لحظات ثورتي على نفسي وعلى أصدقائي الذين أضلوني؛ وفعلت دون تردد أو نكوص، أحرقتك لكي تصفيك النار، وتعيد إليك نقاءك المفقود، فأنت أيضاً قد دنست، وهم، هم أيضاً الآلي دنسوك، لقد لطخوك كما لطخوا صاحبك المأفون، الذي كان إليهم بين أيام وأيام، فيقرئونك ساخرين، صاحبك الذي أوحت إليه الغرارة والوهم أن المعفر في التراب قدير على فهم عاشق السماء برغمي فارقتك، وبرغمي قضيت عليك، ولكن هيهات، هيهات أن أنساك!

هذا أيها العاشق سبيلك الجديد: الصمت المطبق والسكوت التام.

احبس عواطفك في حناياك، وأسدل بينها وبين الناس الحجب والأستار، وع - واذكر ذلك أبداً - أن الجسد لا يريد أن يفهم الروح، ولن يستطيع إن أراد .

وأنتما، يا قلمه، ولسانه: صمتاً شاملا أبدياً كصمت القبر الرهيب في الليل البهيم، فقد جنى (المسكين) من ثرثرتكما أفانين النكد وضروب العذاب. . . ارحماه!. .

صداقة

أيها الذين ربطت الحياةُ بينهم بروابط المودة والأخاء والتآلف الفكري والنبل الخلقي، حافظوا على صداقتكم تلك واقدروها قدرها فالصداقة معينٌ على الآلام ومثارٌ للمسرات، وهي نور الحياة وخمرتها، وكم تكن من خير ثقافي وعلمي للنابهين!

لا تخافوا أن تكونوا من أهل الشذوذ والسذاجة في نظر المغرضين! ألا يئست نفسا فقدت كل سذاجة، وسارت على وتيرة واحدة، لا تعيش إلا للغرض وبالغرض! ما أفقرها وإن كانت ثرية! وما ألصقها بالثرى وإن كانت علية! وحسبكم أنتم أنكم بإيمانكم بالصداقة توجدون الصداقة، وبممارستكم أساليب الصداقة إنما تكونون خميرة الصفاء والصلاح والوفاء!

هي

شــقراء، ذهبيــة الشــعر، لا أدري كيــف أنبتتهــا هــذه الصحراء؟ ومن بنات الفقراء، ولكن لها دلاً وأناقة تخطئهما عند اللواتي نشأت في كنف النعمة والترف والثراء، وفي كلامها خفـة وهَـزَجٌ، وفي مشـيتها تبختر لا يقـل، ومـيسْ لـيس مـن الاختيال. وكانت ترسل شعرها الوحف ولا تفرقه أو تضفره أو تعقصه، بل ترده عن جبينها الوضاء وتحسر جمته عن أذنٍ، وتسـتر أذنـاً. ولا تثبتـه بالأمشـاط أو الـدبابيس، ولا تعصـب رأسـها بالمناديـل، فـإذا عبـث بـه الهـواء وأسـال قصـتها على وجهها رفعت الشـعرات بإصبعها أو نحتها عن أذنها، وكنتُ لا أراها تبتسم إلا خيل إلى أنها ترى حلماً يسرها فيثب قلبي إلى حلقي، واجد حر النار في كفى.

رحيل

وداعاً يا حبيبتي العزيزة! لابد لي من الرحيل، وما دمت أنت سعيدة فليس هناك ما يكربني، أما أن أبقي إلى جوارك فذلك ما لا أستطيعه، إذ سرعان ما يعود قلبي طوع يديك.

لقد طالما ظننت أن الزمن في دورانه، وأن ما فطرت عليه نفسي من فخار وكبرياء، كفيل أن يخمد في قلبي تلك الشعلة الثائرة، شعلة الحب أو شعلة الطفولة، ولكنني لم أتبين حتى جلست إلى جانبك. . . أن قلبي لم يزل في كل شيء هو هو. . . إلا من جهة واحدة. . . . . هي الأمل!

غير أنني على الرغم من ذلك جليت هادئاً بين يديك، نعم إني لم أنس تلك اللحظات التي كان يثبت فيها قلبي بين ضلوعي عند لمحة من عينك! أما الآن فالرعدة جريمة، ولذلك التقينا فلم ينبض فينا عرق.

لقد رأيتك تحدقين في وجهي، ولكنك لم تجدي فيه رأي اضطراب، نعم لم تتبيني في ملامحي سوى معنى واحد، هو ذلك السكون العنيد، سكون اليأس. . . إليك عني. . . إليك عني.

عزاءٌ لك ولي

يـا دار، ليتني ضـللت إليـك الطريـق. . .! منـذ سـنوات وسنوات، كنت مغدَاي ومراحي، وكنت سعادتي وأنسي، وكنت دنياي الصغرى، تلتقي عندك أماني الشباب، تستيقظ فيك أحلام الهوى!

فـأين يومك من أمسك يـا دار؟ أما يومك - وا أسـفاه - فهذا الذي أرى: كومة من أحجار، إلا جداراً يريد أن ينقض! وأما أمس. . هل تذكريني يا دار. . .؟

أين، أين ألقى أهلك الذين ابتعدت خطاهم على الأيام، وأيان، أيان تعود لياليك التي طواها الزمان؟

هنا. . . منذ سنوات وسنوات. . . أودعت قلبي إلى ملتقى موعود؛ فأين منك الوديعة يا دار؟

ما أظن الأيام على سلطانها بقادرة على أن تهدم ذكراكِ في نفسي!

ومضيتُ أتخطى الأنقاض وهي تئن من تحتي أنين الواجد، حتى انتهيت إلى الهيكل المستباح!

يـا لله! كـل شـيء حي في هـذا المكـان، أنـي لأسـمع همـس الـذكرى يرجـع في مسـمعي حـديث الماضي؛ وإني لأرى أطيـاف الحـب تـرف رفيـف الحيـاة؛ وإني لأشـم من حـولي عبير اللقـاء يتخطى بي الزمان والمكان؛ وإني لأراها هي أمامي كأول عهدنا يوم التقينا، فتعارفنا، فأسرت وأسررت النجوى!

مرحبـاً بـك يـا فتـاة! يـا لعينيـك السـاحرتين! مـا لأهـدابك تختلج كأنما تغالبين النعاس؛ ومالك صامتة لا تنسين كائناً غريبان في هذا المكان؟ ماذا؛ مالك معرضة منكرة. . .؟

إنني أنا هو فتاتي كعهدك يوم افترقنا على ميعاد. . .

ردي عليَّ ليالي، وصلى يومنا بماضينا. . . لقد ابتعدت عني بلا وداع شد ما تسخر الأماني!

وبدأ لي من خلل الدموع شبح شيخ يقترب بين الأنقاض. . . ذاك شـيخ يـدب على عكازة لوحتهـا السـنون. . . يعلـو حجـراً ويهـبط عـن حجـر؛ فـدنا مني وقـد تقلصـت شـفتاه عـن مثـل الابتسامة أي منظر موحش. . .؟

قلت: (من تكون أيها الشيخ ومالي بك عهد؟) قال (أنا. . .؟ ما أشـد حماقـة الفتيـان! أنـا الزمـان. . .! وإنمـا لي أن أسـألك: ماذا تنشد بين هذه الأنقاض؟)

قلت: (في هذا المكان، أودعت شيئاً عزيزاً عليّ، أنه قلبي؛ أفتدري أيها الشيخ أين ألقاه؟)

هنا في هذا المكان، كان لي أهل وأحبة وكان قلبي لديهم وديعة إن الدار لتشهد؛ فإني لأنشد هنا قلبي وشبابي وحبي. . !.

قال: (ويحك يا مسكين! أتسأل الزمان أن يرد عليك ما فات. . .؟ إنك يا بني تؤمن بالحب فأسأل الحب - إن أجاب - أن يرد عليك ما استودعته. . .! ما الحب يا بني إلا خرافة؛ هل هو إلا أرق يراوح بين جنبيك ودموع تقرح بين جفنيك وانتظار يستلب شبابك من عمرك، وحنين يستغرق يومك من تاريخك وغيرة تسلبك الطمأنينة والقرار وشك ينبت في صدرك الشوك؛ وهل هو من بعد إلا الندم واللهفة والذكرى؟ أفرأيت شيئاً من ذلك يعدل ساعة من ساعات الشباب، أو يرد عليك سعادة من سعادات الماضي. .؟

هيهات يا بني هيهات. . .!)

ومضى الشيخ على وجهه وإنَّ صدره لسراً. . .!

وعدوت في إثر الزمان أجاذبه السر فما بلغت إليه نفسي وغاب في جوف الظلام. ورجعت منكسراً لفان أنهنه أدمعي وأغالب نفسي.

وإذا على الطريق شاب يبتسم

قال: (مرحباً بك يا صديقي أراك على حيد الطريق فأين أزمعت السير؟)

قلت: (أتراك تعرفني يا فتى؛ فمن تكون؟)

قال: (أنا. . .؟ ما أعجب أن تنسى! أنا رفيق صباك وأنيس أحلامك؛ أنا الأمل. . .! فما أشد أن ينكرني الشباب!)

قلت: (معذرة إليك يا أملي وإنما صرفني عن ذكرك هذاك الزمان!).

قال: (الزمان. . .؟ ويحك! وأين منك الزمان وما تزال في يديك أيامك؟ ألا إن الشباب ليصنع بيديه أيامه ويخط بيديه تاريخه ويملئ على الزمان مشيئته. . .! ألا إن هذا الشيخ الخرف الذي تسميه الزمان لعاجز أن ينالك ومعك الشباب والأمل!)

قلت: (فأنني افتقد شيئاً هنا. . . في هذا المكان. . . كان لي أهل وأحبة، أودعتهم قلبي إلى ملتقى موعود؛ فهذه الدار خلا كما ترى إلا أنقاضاً ركمها الزمان حجراً على حجر؛ أفتدلني أين أجد أحبابي وقلبي؟)

قال: (لك الله ولأحبابك! أفحسبت أنك وحدك الوفي الذاكر؟ إن فتاتك ما تزال هناك تنتظر وإن الوديعة الغالية ما تزال في الحرز الأمين!).

قلت: (فما هذه التي تراءت لي هنا ثم تولت معرضة لم تنبس؟)

قال: (ويحك! ألم تفهم مقالة عينيها وأهدابها تختلج؟ إنها تقول: اتبعني يا حبيبي. . .!)

قلت: (أفتراها مستطيعة أن ترد علي أيامي وقد تولى الزمان وحال المكان؟)

قال: (إن الحب لا يعرف الزمان ولا يحده المكان أنه لشيء من غير دنيانا لا يخضع لنواميس هذه الحياة؛ إن العاشق ليذكر على البعاد من يحب فإذا الماضي كله بين يديه وإذا الذي يهواه تحت ذراعه؛ وإنهما لاثنان هنا: هو خيال من يحب واثنان هناك: هي وطيف من تهوى. أفرأيت الزمان والمكان ساعتئذ قد استطاعا أن يحولا دون هذا اللقاء؛ أو رأيت شيئاً غير الحب يجعل الاثنين أربعة في زمان ومكان. . .؟

(ألم تفهم مقالة عينيها وأهدابها بها تختلج إنها تقول: اتبعني يا حبيبي. . .!)

ولمحت زهرة ترف رفيفها في ظل جدار قائم وهي تناجي أختها نجوى الحزين إلى الحزين؛ كانتا وحدهما في هذا المكان رمز الحياة بين رموز الموت من تلك الصخور المجدلة. وإن للأحجار والجماد لحياة كحياة الناس وموتا كالذي ماتوا، إن البيت الآهل لحي بسكانه ما عمروه فإذا احتملوا وهجروه فما هو حينئذ بيتا حيا وإن بقيت له معالمه وأبوابه ومفاتحه وأقفاله وأن في التراب يغطي أرضه وجدرانه لمعنى من معاني القبر!

ودنوت استمع إلى نجوى الزهرتين:

قالت إحداهما لجارتها: (ويلي - يا أختاه - من المقام بين تلك الأنقاض الميتة ما أكاد أشعر إنني زهرة ذات روح وعبير لماذا نمتني الأرض وزينتني بألوان الربيع إذا كنت لا أرى العين التي تتملى حسنى معجبة شهوى؛ ولماذا أنا زهرة إذا انقضت حياتي على وتيرتها بين هذه الأنقاض لا يشم عبيري أحد ولا تتناولني يد رفيقة. . .؟)

قالت أختها: (فإنك لتبطرين النعمة! وإنك في مقامك هنا لأسعد من أخوات لك هناك في الروض؛ ما تكاد تتفتح عنهن الأكمام حتى تتناولهن الأيدي؛ فيوماً في الحرير على الصدر ويوماً في زهرية على المائدة؛ ثم هي بعد مع الزبالة تطؤها النعال. . .!)

قالت: (وهل أنا زهرة إلا أن أكون عطراً يستنشي وجمالاً يشتهي؛ ويوماً على صدر ويوماً في زهرية؟ إلا إن يوماً واحداً هناك يشعرني جمالي - لخير من أيام هنا على هذا الغصن الشائك ما ينفك يخزني كلما مالت به النسمات! ألا إنما السعادة قلب وابتسامة وإنما الحياة أن أكون شيئاً في الحياة!)

وهبت نسمة عاتية فإذا الزهرة ورقات منثورة على التراب. . .!

يا ويلتا! حتى هذه الأشياء تنشد الحب وتستوحش من الوحدة والخراب. . .!

أيتها الزهرة التي انتثرت غضة عبقة لم تنعم بالحب؛ كم من قلوب بشرية كقلبك؛ انتثرت أحلامها بددا على أنقاض اليأس والحرمان قبل أن تستنشي عطر الحب أو تذوق لذة المنى. . .!

عزاءً لك ولي. . .

٦ أكتوبر

-١-

لا يمكن أن يكون هناك شيء عبثي .

لكل شيء في الحياة ما يشير إليه .

لكل شيء نافذة يحاول أن يرينا من خلالها شيء ما وهي كانت تشير دائما إلى الله .!!

-٢-

تبدو أكثر رفاهية وهي تقطف كلمات الخضوع من أعين العابرين .

هكذا حين تعبر تنحني لها الكثير من قلوب البشر .

-٣-

كل أنثى في النهاية ترغب أن تتحول إلى كلمات .

أن تتحول إلى آلهة وأن تلمس الخلود في كلمات أحدهم فلا تموت بعدها أبدا حين تتداولها أعين القراء .

-٤-

هناك من يعاقب نفسه بالكلام.

يحملها كل هذا الثقل من الحروف والأصوات المبحوحة.

كل هذه الكلمات التي لا يمكن أن تفهم كما يجب فتبقى عالقة في الحنجرة .

-٥-

هل بإمكان الكلمات أن تتوقف يوما .

أن لا تتناسل بكِ . ؟

وهي التي لم تنبعث إلا من عينيك أولا . لتشتعل في تلويحة كفيك أخيرا وأنتِ تجهشين إلى الأفق !!

-٦-

لي بكِ ثلاثون عاماً .

مسيرة لم تنوء بها الكلمات أبدا. بإمكانها أن تحمل زمنها وزمنك وتمضي إلى الأبدية . بإمكانها أن لا تطوف إلا عليك .

-٧-

أخبريني من أيقظ الرحيل في قلبك وأنتِ المشبعة بالحياة.؟

من قادك في خلوة العشق أن تكشفي كل الحجب وتتأملي البكاء ولم أطرق على مسامعك إلا أنشودة المطر.

-٨-

ألم نكن إلا المائدة التي يجتمع عليها الصباح .

أزاهير المستقبل المشرقة وأرغفة الأمل المكتنزة بكِ قبل أن تخلفي آثارك إشارة إلى جرح الغسق والغروب .؟

-٩-

أحدنا ناسك أراد أن يتخلى عن الأرض ، فنشبت صلواته في السماء ، والآخر لم يفتأ يُحدث الأرض عن آثار أسلافه. أراد فجأة أن يتحول إلى قصيده تنام بشفتيك.

-١٠-

آثارك مجرد تراتيل عالقة في الهواء تلجلج أصداؤها في الوجود . تقودني إلى كلمات حادة في حنجرتي وسديم وفوضى والكثير من الدعاء .

عند الثلاثين

منذ تسع وعشرين أصعد في الجبل وما بلغت. أتراني إلى القمة أدب دبيبي، أم قد جاوزتها وما أدري، فأنا منحدر أتدلف من جانبها إلى بطن الوادي. .؟

يكتفني الغيب فما أعرف أين يومي من أمسه ومن غده. أما أمس فقد خلعته عني، وطوته الأيام طي مرقعةٍ بالية فما تراه إلا خُلقاناً مركومة كالميت لفَّته أكفانُه. وهل الماضي إلا الجزءُ الذي مات منا؟

وأما الغد. . . فمن لي بما هناك؟ إن الأحلام لتكذب، فما أحسبها كانت تتراءى لي إلا دنيا غير دنياي ليس من أيامها يومي ولا غدي.

هذه الأيام صرعى على مدرجة الزمن، وما تزال المنى تصطرع في رأسي!

يا لي من الأيام! لشد ما كانت تسخر مني إذ تمد لي أسباب المنى، حتى إذا هممتُ لم تكن عثراتي إلا أيامي!

اِنقشعي أيتها الغيوم واكشفي لي عما وراءك؛ إن لي أمنيةً هناك!

إني لأراني كأنما لَبِسَني النوم، فأنا من الرؤيا في دنيا غير التي أعرف، وناسٍ غير هذه الناس، وثَمَّت طفلٌ يعدو خلف فراشة، أتراه مُدرِكُها؟

لقد آب فارغ اليد، ولكن على شفتيه ابتسامة!

وأقبل يتعرفني وما كانت به إلى من حاجة

قال: (من أنت؟)

قلت: (أما تعرفني؟)

قال: (نعم، فمن تكون؟)

قلت: (فأنظر في مرآتك لعلك واجدٌ فيها الجواب.)

ونَظَر ونظرتُ من خلفه، فما كان في المرآة إلا وجه الطفل الضاحك ولوى رأسه وعاد ينظر إلي ويقول:

- (لستَ هناك، وما أُراني أعرفك ولا تعرفك مرآتي)

ورفت الفراشة فانطلق يعدو وراءها والابتسامة على شفتيه!

يا طفولتي التي فرت بأسعد أيام الحياة، ليتكِ كنت تعرفين!

وعاد الطفل فتى يخطر ريان الوجه مشرق الجبين، فأزْوَرَّ إذ رآني على الطريق.

قلت: (أتنكرني يا فتى؟ فإنني صاحبك!)

قال: (متى؟ فما أضنني عرفتك!)

قلت: (ذاك يوم التقينا على السفح والشمس ضاحية، وتصاوير الزهر ترف من أجنحة الفراشة)

وابتسم الفتى ومر بيمناه على جبينه وهو يقول:

- (لعلي أذكر من بَعدُ!)

وانطلق يغني جذلان

يا نضارة الصبي وبكرة الشباب، ليتك إذ توليت عابثة ناعمة بالحرية - كنت تدرين من هناك!

وأقبل من بعدُ شاب يبتسم. ما أشبه بصاحبه!

قلت: (ها أنت ذاك، أما تعرفني؟)

قال: (كأني رأيتك من قبل، بربك من تكون؟)

قلت: (فانك ما تزال تنكرني على ما صحبتُك زماناً ولمّا يَنقض عهد طويل!)

ولم أجد جوابي؛ فقد لوى الشاب رأسه يتابع بعينيه فتاةً تخطر، ثم انطلق مُهطعاً وراءها ونفسي تتبعه يا الله! لكأنها هي. . .!

وتلاشى الوجود من أمامي فلم أعد أرى غير وجه ضاحك، وطلعةٍ مشرقة، وعينين تُشعان النور من وجه الفتاة .

ورأيتها تدنو مني وفي وجهها كلام. . .

قلت: (أما تزالين تذكرين يا فتاة؟ يا للنفس العطوف!)

قالت: (أئنهُ لأنت؟ لله صبْرُك!)

وانقضت كلماتها على صدري بالهم والوحشة والعذاب، وكأنما أجتمع منها تاريخ سبع سنين طوال، ما يزال في القلب منهن جراحٌ تنزف!

وانثالت الذكريات على نفسي تتمثل من مشاهدها قصة غرام ثائر، أغْفَلَها مُنشِئها قبل أن يبلغ بها إلى نهاية.

ورحت أنكت الأرض بالعصا، كأني أفتش تحت التراب عن الجزء الذي مات من قلبي! ورأيت ظلها على الأرض، فاستحيت أن أرفع رأسي وفي عيني دموع!

يا للشباب من حب بلا رجاء! أوضيع أنضر أيام الحياة مصبوباً على نفسي، أبحث عن أهون ما في الحياة؟

وأين الرجولة إن بذلت شبابي ونفسي لأعدو في ظل فتاة؟ أُتُراها تَجدُ فَقْدِي؟

إن المرأة للرجل إن هي إلا وحيُ المجد ومطلعُ الأمل، فإذا عادت لهفةً ودموعا فما هي امرأة، ولكنها اليأس والحرمان والخيبة!

وتذكَّرْتُ صاحبي الذي أنفلت مني مُهطعاً إلى فتاته، فإذا هي أمامي والفتاة إلى جانبه ذراعاً إلى ذراع.

قال: (ما تقول لنفسك؟)

قلت: (أوَ تسمع هَمْس النفس ونجوى الضمير؟)

قال: (قد علمت بعض هذه النجوى. . . أفكنت تتحدث بما تتحدث إلى نفسك، لو لم تكن هذه الشعراتُ البيض تخفي وتلوح في فوْدَيكَ؟)

قلت: (أوَ تراها؟. . . فاسأل صاحبتَك عن خبرها؛ فهل جاءك أن هذا الشيب الباكر يدلّ إلا على شباب القلب؟ ما أحسبك تَعْلمُ حتى تُنْبِئَكَ الشعرةُ البيضاء!)

واستضحك الفتى والفتاة. . .!

وتلاشى الوجود ثانية من أمامي! وإذا أنا في دنيا غير دنياي، وناسٍ غير هذه الناس؛ وإذا المرآة أمامي تجلو لي ما

تجلو (الخيالة)، وكأنما اجتمع بها في زمان ومكان تاريخي كله على الأرض منذ تسع وعشرين بماضيه وحاضره، وران ضبابُ أنفاسي على ثلث المرآة.

وإذا فيما ظهر لي من المرآة طفل يعدو خلف فراشة، ما ينفك يقفز ويثب وغلام يخطر مغنياً جذلان، ما يعنيه إلا الكرة يرتق فتوقها، واللّدات من الصبيان يتجاذب وإياهم أسباب المسرة في الحارة وعلى ناصية الطريق.

وشاب باسم الثغر منبسط الأسارير دنياه هذه الفتاة، له منها في النهار مشغلة وفي الليل مشغلة. ثم. . . ثم هذا الوجه الذي يعرفه صحابتي، على شفتيه ابتسامة عابسة، وفي عينيه سر يبالغ في الاستخفاء، ومن وراء جبينه أماني تصطرع، ودنيا يموج بعضها في بعض.

ليت شعري أهذه هي الحياة، أليس فيها أحسن مما رأيت، أهذا كل ما هناك؟

يا ضيعة المنى إن كان الغد يوماً مكرراً مما فات!

صندوق /٣٦٥

-١-

كنتِ رسولة السماء إلي حتى انتصبتي في عالية القلب وأقمتي كل ما يمكن من معابدك .

اخترتي جيدا النقطة التي تقودني إلى كل الاتجاهات فلم أجدك أبدا .

-٢-

لا يمكن أن تكون كل المحاريب متساوية .

لكل محراب نافذته الخاصة ومؤمنيه.

لكل محراب نبيه الذي أقامه على الأرض باتجاه السماء بحثا عن لقاء .!

-٣-

الخضرة هي أن تعي تماما أين تكون . متى تتحرك ، متى تقف ، متى تنتظر ،متى تبدأ بالصلاة ؟

وأين تتوجه في القبلة ، وماهي الكلمات المناسبة للآلهة.؟

-٤-

في الغابة تمطر السماء دائما .

بينما تدير ظهرها للصحراء بحثا عن استجداء الأيدي.

هكذا مصير القلوب المتصحرة أن تبقى فقيرة للأبد .

-٥-

الارتباط بالبشر ارتباط بالقلق والاحتراق. والارتباط بالذات نوع من الصقيع والبرد .

-٦-

كل نجمة تومئ إلى شيء ما دائما . لا يمكن أن تموت هكذا بصمت بدون أي إشارة لها .

أين هي الآن مني؟

الغد. . . . إن الغد ليتراءى لي خلف ضباب المنى كأني من توهمه أستعيد تاريخا غبر لا يفصلني منه إلا ما فات من أيامي.

هأنذا في الفلك مرتفق إلى حافته، والموج من حولي يعج ويصخب، والنسيم يصافح خدي فأسمع في دمدمته أصداء ذكرى بعيدة، طوفت ما طوفت ثم عادت تترامى إلى أذني خافتة من طول ما أعيت في مجاهل الزمان. . .!

وها هي ذي إلى جانبي في الفلك مرتفقة إلى ذراعي، قد عطفها علي خوف البحر لتلتمس الأمان من قربي، فما ركبت البحر من قبل ولا كان لها بهدهدة الفلك عهد

قلت لها: (أتخشين البحر؟)

قالت: (بل أخشى الفراق!)

قلت: (فإنني إلى جانبك فما يفزعك؟)

قالت: (حبذا أن يكون هذا حقيقة! أهذا هو البحر، وتلك هي السماء، وهذا أنت؟ فما بي خوف البحر وإنك إلى جانبي، ولكني أريد لك أن تعيش!)

وهدأ البحر واملست صفحته، وراح الفلك يشق الماء في لين وخفة، وإن له لموسيقى هادئة فيها عذوبة الأمل الواثق ونشوة السعادة الراضية.

وثابت إلى نفسها، فراحت تنقل الطرف من هنا إلى هناك وفي ابتسامتها معان من الغبطة وفي عينيها نظرات. .

قالت: (أتسمع إلى هذه الموسيقى؟ فإنها لمن نفسي وفي نفسي!)

قلت: (ما أحب إلي أن أبقى إلى جانبك الدهر نستمع إلى أغاني الحب في خرير الماء وهمس النسيم، ونمتد في أحلام السعادة ما امتدت بنا الحياة!)

قالت: (أئنك لتقرأ ما في نفسي، فما أعدل بما نحن فيه أن يكون لي الملك! أرأيت في الحياة ملكاً يعدل قلبين يؤلف بينهما الحب؟).

ورأيت على الشاطئ القريب قصراً قائماً، تلوح النعمة من شرفاته ويستعلن الغنى قلت: (أفلا تودين أن يكون لنا هذا القصر، نعيش للحب في أفيائه ونستظل منه بوارف السعادة؟).

قالت: (ما أتمنى لهذا الحب أن يتعلق من أوهام الأرض بمثل ذاك! ليتني وإياك على رمث في البحر ليس لنا إلا البحر،

أو في كوخ من قش على حدود الدنيا ليس لنا إلا حدود الدنيا، أو كهف من جبل في طريق الصحراء ليس لنا إلا الصحراء، فهناك سمو الحب لا حيث ترى الآن. ! ما لنا وللناس يا حبيبي نطاولهم بالطين والتراب؟ وإنما الحب قلب لقلب، ودنيا من وراء الدنيا. أنا وأنت هما كل الناس، ويومنا هو الزمان، ومجلسنا العين في العين، والجنب إلى الجنب، هو الدنيا كلها ما تتسع لغيره، ولا تمتد لسواه؟

ورسا بنا الفلك على خضراء مزهرة، فانسابت هي في الطريق على حذر ورقبة، وخلفتني هناك أنتظر. . .

ياويح الشباب من أحلامه! متى تعود إلى جانبي، فنعيش الروح للروح، والنفس للنفس؟ لقد طالت بها النوى وما آبت.

ومضيت أتوكأ على نفسي في ظلال الروض، أتمثلها في كل منعطف وكل ثنية، وإن عيني لتأخذان الطريق، وإن الزهرة لتهمس في أذن أختها: (لقد كانت هنا ثم لم تكن!)، وإن الغصن الناضر ليشير بإصبعه إلى هناك؛ وكل شيء من حوله قد مسته الحياة، ونفخ فيه الحب روحا من روحه، إلا. . . إلا قلبي؟

وتهاويت على مقعد بين ملتف الحدائق، فأغمضت عيني وإنني ليقظان، وسمعت من خلل الغصون حمامة تقول لأختها (انظري! هل يعرف السلام من عرف الحب؟).

ودقت بجناحيها فطرفت عيني، ثم علت فأمعنت في الجو تصعيدا، وإن عبارتها لترن في آذني؛ وفتحت عيني فإذا هي إلى جانبي. .!

قلت: (أهذا أنت يا حبيبي! ما أصبرك على البعاد!)

قالت: (فانك ما تزال هنا، لقد كنت على يقين بأنك تنتظر!)

قلت: (وأين لي أن ألتمس السعادة في غير دنياك، وكيف لي أن أمل الثواء هنا، ومعي خيالك، وأنا منك على ميعاد؟).

وذهبنا نخطر جنبا إلى جنب، وإن قلبي ليتحدث، وإن قلبها ليجيب، وإن المنى لتبتسم!

وطوينا الطريق في خطوات، وإذا نحن في بيت يجمع من أمرنا ما تفرق، نطل من شرفاته على ذلك النهر الذي شهد بكرة هذا الحب ووعى ذكريات هذا الغرام، وإن له لحديقة تزهر فيها الأماني وتتفتح الأحلام.

ورحنا نمرح في جنبات الدار كأسعد عاشقين أتم عليهما الحب نعمته وأسبغ أمنه. فإذا دنا المساء فذراعها إلى ذراعي

في الحدائق الفينانة والملاعب الساهرة؛ فما في الناس إلا من يعرفنا فيتمنى ويرانا فيغبطنا!

وكنا في البيت فجاءت تسعى إلي ضاحكة مزهوة

قالت: (كيف ترى هذا الثوب يا حبيبي؟)

قلت: (إنك به لأكثر فتنة!)

قالت: (إنما صنعته بيدي، ولقد أدمت الإبرة إصبعي، ولكني بما أصابها لسعيدة! أرأيت يا حبيبي إنني لا أشتري جمالي من السوق، ولا ألتمسه عند الخياطة؟)

قلت: (إنني بك فخور!)

قالت: (بل قل بربك إنك تحبني، وأترك لي وحدي نعمة الفخر بحبك!)

ثم لوت لتهيئ لنا الطعام. ما أشهى ما أكل من صنع يديها الجميلتين!

ومضيت في سبيلي إلى المجد اقتحم الصعب وهي من ورائي تدفعني إلى الجهاد وتضاعف في الأمل. فإذا أعياني الجهد ونالني التعب وتكاءدتني عقبات الطريق - مالت علي تهمس في أذني عاتبة:

(كيف تضيق بنفسك يا حبيبي وأنا إلى جانبك!)

يا الله! أكان هذا كله خيالاً من تلفيق الأحلام، تجمع من صورة إلى صورة دنيا تموج، ومن جزء إلى جزء عالماً مصوراً من المنى التي نلتمسها في اليقظة فلا نراها. . .؟

لا أكاد أصدق من طول ما تتراءى لي هذه الصور أنها غير حقيقية! فهأنذا ما أزال أفتش عنها. . . عنها هي، واثقاً أنني سأجد عندها تعبير أحلامي. . .!

ويحي! أين هي الآن مني؟ أتراني ألقاها في الخيال على غفلة منها، أم أنا من فكرها في مثل موضعها من فكري فنحن نلتقي على ميعاد؟

ألا كم يفعل الحب من معجزات! أنه ليضاعف وجود العاشقين إذ يلتقيان على البعاد في دنيا الوهم، فهي معي هنا، وأنا معها هناك. . .!

دار وحبيب. . .!

يـا دار، ليتني ضـللت إليـك الطريـق. . .! منـذ سـنوات وسنوات، كنت مغداي ومراحي، وكنت سعادتي وانسي، وكنت دنياي الصغرى، تلتقي عندك أماني الشباب، تستيقظ فيك أحلام الهوى!

فـأين يومك من أمسك يـا دار؟ أمـا يومك - وا أسـفاه - فهذا الذي أرى: كومة من أحجار، إلا جداراً يريد أن ينقض! وأما أمس. . هل تذكريني يا دار. . .؟

أين، أين ألقى اهلك الذين ابتعدت خطاهم على الأيام، وأيان، أيان تعود لياليك التي طواها الزمان؟

هنـا. . . منذ سـنوات وسـنوات. . . أودعـت قلبي إلى ملتقى موعود؛ فأين منك الوديعة يا دار؟

ما أظن الأيام على سلطانها بقادرة على أن تهدم ذكراكِ في نفسي!

ومضيت أتخطى الأنقاض وهي تئن من تحتي أنين الواجد، حتى انتهيت إلى الهيكل المستباح!

يـا لله! كـل شـيء حي في هـذا المكـان، أنـي لأسـمع همـس الـذكرى يرجـع في مسـمعي حـديث الماضي؛ وإني لأرى أطيـاف الحـب تـرف رفيـف الحيـاة؛ وإني لأشـم من حـولي عبير اللقـاء يتخطى بي الزمان والمكان؛ وإني لأراها هي أمامي كأول عهدنا يوم التقينا، فتعارفنا، فأسرت وأسررت النجوى!

مرحبـاً بـك يـا فتـاة! يـا لعينيـك السـاحرتين! مـا لأهـدابك تختلج كأنما تغالبين النعاس؛ ومالك صامتة لا تنسين كائناً غريبان في هذا المكان؟ ماذا؛ مالك معرضة منكرة. . .؟

إنني أنا هو فتاتي كعهدك يوم افترقنا على ميعاد. . .

ردي على ليالي، وصلى يومنا بماضينا. . . لقد ابتعدت عني بلا وداع شد ما تسخر الأماني!

وبدأ لي من خلل الدموع شبح شيخ يقترب بين الأنقاض. . . ذاك شـيخ يـدب على عكازة لوحتهـا السـنون. . . يعلـو حجـراً ويهـبط عـن حجـر؛ فـدنا مني وقـد تقلصـت شـفتاه عـن مثـل الابتسامة أي منظر موحش. . .؟

قلت: (من تكون أيها الشيخ ومالي بك عهد؟) قال (أنا. . .؟ ما أشـد حماقـة الفتيـان! أنـا الزمـان. . .! وإنمـا لي أن أسـألك: ماذا تنشد بين هذه الأنقاض؟)

قلت: (في هذا المكان، أودعت شيئاً عزيزاً على، أنه قلبي؛ أفتدري أيها الشيخ أين ألقاه؟)

هنا في هذا المكان، كان لي أهل وأحبة وكان قلبي لديهم وديعة إن الدار لتشهد؛ فإني لأنشد هنا قلبي وشبابي وحبي. . !.

قال: (ويحك يا مسكين! أتسأل؟ الزمان أن يرد عليك ما فات. . .؟ إنك يا بني تؤمن بالحب فأسأل الحب - إن أجاب - أن يرد عليك ما استودعته. . .! ما الحب يا بني إلا خرافة؛ هل هو إلا ارق يراوح بين جنبيك ودموع تقرح بين جفنيك وانتظار يستلب شبابك من عمرك، وحنين يستغرق يومك من تاريخك وغيرة تسلبك الطمأنينة والقرار وشك ينبت في صدرك الشوك؛ وهل هو من بعد إلا الندم واللهفة والذكرى؟ أفرأيت شيئاً من ذلك يعدل ساعة من ساعات الشباب، أو يرد عليك سعادة من سعادات الماضي. .؟

هيهات يا بني هيهات. . .!)

ومضى الشيخ على وجهه وإن صدره لسراً. . .!

وعدوت في اثر الزمان أجاذبه السر فما بلغت إليه نفسي وغاب في جوف الظلام. ورجعت منكسراً لفان أنهنه أدمعي وأغالب نفسي.

وإذا على الطريق شاب يبتسم:

قال: (مرحباً بك يا صديقي أراك على حيد الطريق فأين أزمعت السير؟)

قلت: (أتراك تعرفني يا فتى؛ فمن تكون؟)

قال: (أنا. . .؟ ما أعجب أن تنسى! أنا رفيق صباك وأنيس أحلامك؛ أنا الأمل. . .! فما أشد أن ينكرني الشباب!)

قلت: (معذرة إليك يا أملي وإنما صرفني عن ذكرك هذاك الزمان!)

قال: (الزمان. . .؟ ويحك! وأين منك الزمان وما تزال في يديك أيامك؟ ألا إن الشباب ليصنع بيديه أيامه ويخط بيديه تاريخه ويملئ على الزمان مشيئته. . .! ألا إن هذا الشيخ الخرف الذي تسميه الزمان لعاجز أن ينالك ومعك الشباب والأمل!).

قلت: (فأنني افتقد شيئاً هنا. . . في هذا المكان. . . كان لي أهل وأحبة، أودعتهم قلبي إلى ملتقى موعود؛ فهذه الدار خلا كما ترى إلا أنقاضاً ركمها الزمان حجراً على حجر؛ أفتدلني أين أجد أحبابي وقلبي؟)

قال: (لك الله ولأحبابك! أفحسبت انك وحدك الوفي الذاكر؟ إن فتاتك ما تزال هناك تنتظر وان الوديعة الغالية ما تزال في الحرز الأمين!)

قلت: (فما هذه التي تراءت لي هنا ثم تولت معرضة لم تنبس؟)

قال: (ويحك! ألم تفهم مقالة عينيها وأهدابها تختلج؟ إنها تقول: اتبعني يا حبيبي. . .!)

قلت: (أفتراها مستطيعة أن ترد علي أيامي وقد تولى الزمان وحال المكان؟)

قال: (إن الحب لا يعرف الزمان ولا يحده المكان أنه لشيء من غير دنيانا لا يخضع لنواميس هذه الحياة؛ إن العاشق ليذكر على البعاد من يحب فإذا الماضي كله بين يديه وإذا الذي يهواه تحت ذراعه؛ وإنهما لاثنان هنا: هو خيال من يحب واثنان هناك: هي وطيف من تهوى. أفرأيت الزمان والمكان ساعتئذ قد استطاعا أن يحولا دون هذا اللقاء؛ أو رأيت شيئاً غير الحب يجعل الاثنين أربعة في زمان ومكان. . .؟

(ألم تفهم مقالة عينيها وأهدابها بها تختلج إنها تقول: اتبعني يا حبيبي. . .!)

ولمحت زهرة ترف رفيفها في ظل جدار قائم وهي تناجي أختها نجوى الحزين إلى الحزين؛ كانتا وحدهما في هذا المكان رمز الحياة بين رموز الموت من تلك الصخور المجدلة. وإن للأحجار والجماد لحياة كحياة الناس وموتا كالذي ماتوا، إن البيت الآهل لحي بسكانه ما عمروه فإذا احتملوا وهجروه فما هو حينئذ بيتا حيا وإن بقيت له معالمه وأبوابه ومفاتحه وأقفاله وان في التراب يغطي أرضه وجدرانه لمعنى من معاني القبر!

ودنوت استمع إلى نجوى الزهرتين:

قالت إحداهما لجارتها: (ويلي - يا أختاه - من المقام بين تلك الأنقاض الميتة ما أكاد أشعر إنني زهرة ذات روح وعبير لماذا نمتني الأرض وزينتني بألوان الربيع إذا كنت لا أرى العين التي تتملى حسنى معجبة شهوى؛ ولماذا أنا زهرة إذا انقضت حياتي على وتيرتها بين هذه الأنقاض لا يشم عبيري أحد ولا تتناولني يد رفيقة. . .؟)

قالت أختها: (فإنك لتبطرين النعمة! وإنك في مقامك هنا لأسعد من أخوات لك هناك في الروض؛ ما تكاد تتفتح عنهن الأكمام حتى تتناولهن الأيدي؛ فيوماً في الحرير على الصدر ويوماً في زهرية على المائدة؛ ثم هي بعد مع الزبالة تطؤها النعال. . .!)

قالت: (وهل أنا زهرة إلا أن أكون عطراً يستنثي وجمالاً يشتهي؛ ويوماً على صدر ويوماً في زهرية؟ إلا إن يوماً واحداً هناك يشعرني جمالي - لخير من أيام هنا على هذا الغصن الشائك ما ينفك يخزني كلما مالت به النسمات! ألا إنما السعادة قلب وابتسامة وإنما الحياة أن أكون شيئاً في الحياة!)

وهبت نسمة عاتية فإذا الزهرة ورقات منثورة على التراب. . .!

يا ويلتا! حتى هذه الأشياء تنشد الحب وتستوحش من الوحدة والخراب. . .!

أيتها الزهرة التي انتثرت غضة عبقة لم تنعم بالحب؛ كم من قلوب بشرية كقلبك؛ انتثرت أحلامها بددا على أنقاض اليأس والحرمان قبل أن تستنشي عطر الحب أو تذوق لذة المنى. . .!

عزاءً لك ولي. . .

بيروت- القاهرة- القلادة

-١-

الآن توقفت ذاكرتي عندك وكأن كل ما يحدث من حولي لا يستحق التذكر، أو أنه لم يعد هناك في الذاكرة ما يتسع لغيرك.

-٢-

كنتِ أكثر أنانية وأنتِ تقولين : الحب لا يبحث عن التضحيه ؛بل يبحث عن الامتلاك . يريد منا أن نكون أكثر خلوداً في حياة من نحب .

-٣-

لـم تزرعي إلا العشـق الـذي أخـذ ينمـو بـكِ حتى تضخم فجـأة وتكلـس ،وحـين انتزعتـك السـماء لـم يعـد هنـاك موطأ قدم لغيركِ!!

-٤-

هـا أنـا أفـتش عـن صـوت الملاك بـداخلي ... تلـك الملائكـة التي انسحبت من أرضي حين سكنتي شياطين الغياب .

-٥-

وكـأن المرايـا لـم تُصـنع إلا لتـذكرك بمقـدار الثقـب الـذي تحمله في ملامحك .

-٦-

هذه المسيرة من الغرام التي منحتي بمقدار ما انتزعت مني . وكأنها حين قررت المضي بحياتها أخذت ما تبقى لدي من رغبة .

-٧-

دعوها توقظ كل هذا السبات في قلبي .

هي التي ما فتأت تدك حصون القلب حتى استصرخها وجدا وعشقًا ونداءً .

-٨-

خاليًا إلا من الصوت إليها . وكأنه التميمة في عنق ناسك يخشى المضي إلى ربه بدونها .!

-٩-

كأنها اليقظة حين تقع عليها الأعين العطشى للجمال .
تبدو محملة بالكثير من الحياة التي تنفثها في الأرض فتحيا بها دقائق الهواء وتبدأ بالرقص .

-١٠-

هكذا تمطر بأخيلتها العذبة فتنمو بها الذاكرة وجلة فتهفو الكلمات مسبحة إليها وخاضعة ..!